الشريعة الإسلامية ومحاسنها

وضرورة البشر إليها

لسماحة الشيخ

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

مفتي عام المملكة

دار القاسم للنشر
الرياض ١١٤٤٢ ص.ب ٦٣٧٣
ت : ٤٧٧٥٣١١ فاكس : ٤٧٧٤٤٣٢

ح دار القاسم للنشر ، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن باز ، عبدالعزيز بن عبدالله

الشريعة الاسلامية ومحاسنها وضرورة البشر اليها .ـ الرياض.

٥٦ ص ؛ ١٢ × ١٧ سم

ردمك ٣-٦١-٠٣٣-٩٩٦٠

١ - الشريعة الاسلامية أ - العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٨/٠٤٣٠

رقم الإيداع : ١٨/٠٤٣٠
ردمك : ٣-٦١-٠٣٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤١٨هـ

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه .

أمّا بعد :

فلما كانت المحاضرات العلمية من خير الوسائل لإيضاح الحقائق وإبراز محاسن الشيء المحاضر عنه ، وبسط الكلام فيه بعض البسط ، رأيت أن يكون موضوع كلمتي : (**الشريعة الإسلامية ومحاسنها وضرورة البشر إليها**) .

وإنما اخترت هذا الموضوع لأهميته العظيمة كما لا يخفى ، فإن البحث في الشريعة الإسلامية وما يتعلق بمحاسنها ومصالحها وعنايتها بالعباد ، وما يتعلق بالضرورة إليها - أمر عظيم ، والحاجة إليه شديدة ، والتفقه فيه والعناية به من أهم الأشياء . فلأهمية هذا الموضوع وعظم شأنه ، ومسيس الحاجة إلى المزيد من الفقه فيه والبصيرة رأيت أن يكون موضوع الكلمة . وبهذا يتضح لإخواني أن هذه الكلمة ذات شقين :

أحدهما : الشريعة الإسلامية ومحاسنها . والثاني : ضرورة البشر إليها .

وسأتكلم إن شاء الله على الشقين جميعاً .

أما الشق الأول : وهو ما يتعلق بالشريعة الإسلامية ومحاسنها :

فمن المعلوم لدى المسلمين ولدى كل من له أدنى علم بالواقع في الأزمان الماضية - أن الله جل وعلا بعث الرسل جميعاً عليهم الصلاه والسلام بدين الإسلام ، من أولهم نوح إلى آخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام ، بل أبونا آدم عليه السلام كان على الإسلام ، والقرون التي كانت بعده ، إلى أن حدث الشرك في قوم نوح ، كلهم كانوا على الإسلام ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم حدث الشرك في قوم نوح بعبادة الصالحين ؛ ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، فأرسل الله نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه لما وقع فيهم الشرك ، وكان أول رسول إلى أهل الأرض كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فالرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، بعثهم الله من أولهم إلى آخرهم بدين الإسلام ،كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [سورة آل عمران ، ١٩] ، فأوضح سبحانه أن الدين

عنده هو الإسلام ، لا دين عنده سواه سبحانه وتعالى . ثم أكد ذلك سبحانه بآية أخرى ، فقال جل وعلا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الأَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، ٨٥] .

فبين عز وجل أن جميع الطرق مسدودة إلا هذا الطريق وهو الإسلام ، وأوضح سبحانه وتعالى أن الإسلام هو الدين الذى يقبل من جاء من طريقه ، ومن جاء من غير طريقه لا يقبل .

وقال عز وجل : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [سورة المائدة ، ٣] .

فخاطب هذه الأمة على يد رسوله محمد عليه الصلاة والسلام بأنه أكمل لها الدين ، وأتم عليها النعمة ، ورضي لها الإسلام ديناً ، فدل ذلك على أن دين الإسلام : هو دين محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو دين هذه الأمة ، كما أنه هو دين الأنبياء الماضين والرسل أجمعين عليهم الصلاة والسلام .

ثم أيد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْراهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [سورة الشورى ، ١٣] . فخاطب هذه الأمة بأنه شرع لهم من الدين ما وصى به نوحاً ، (والذي أوحينا إليك) يعني : يا محمد ؛ عليه الصلاة والسلام .

فالله جل وعلا شرع لهذه الأمة ما وصى به نوحاً من إقامة أمر الإسلام والاستقامة عليه والاجتماع عليه ، وما أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام من الاستقامة في الدين والاجتماع عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [سورة آل عمران ، ١٠٣] . وبقوله جل وعلا : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [سورة آل عمران ، ١٠٥] .

فعلم بهذا أنه شرع لنا سبحانه ما شرع للأنبياء الماضين والرسل الأقدمين ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَن

يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَآ إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّين فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة ، ١٣٠-١٣٢] . فبين سبحانه أن إبراهيم وصى ذريته بالإسلام ، وهكذا يعقوب أوصى بنيه بذلك .

وذكر عن نوح عليه الصلاة والسلام أيضاً ما يدل على ذلك، فقال جل وعلا في سورة يونس في قصة نوح أنه قال لقومه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، ٧٢] .

وقال عن موسي أنه قال : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس ، ٨٤] .

وقال عن بلقيس : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل ، ٤٤] .

فعلم بهذه الآيات وما في معناها أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً ، وهو دين الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام ، وأنه دين الله حقاً لا دين له سواه ، ولا يقبل من أحد ديناً سواه ، وهو

الدين الـذي أمر الرسـل بإقامته . وحقيقته توحيـد اللـه عـز وجـل في ملكـه وتدبـيره وأفعالــه ، وفي عبادتــه ســبحانه ، وفي أسمائــه وصفاتـه والانقيـاد لأمـره وقبــول شــريعته، والدعــوة إلى ســبيله والاستقامة على ذلك ، والاجتماع عليه وعدم التفرق فيه ، وهــذا هو الدين الــذي أمرنـا بإقامتـه ، وأمـر اللـه الرسـل ومـن بعدهـم بإقامته ، كما قال تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُـواْ فِيـهِ ﴾ [سورة الشورى ،١٣] .

فإقامة الدين معناها : قبوله والتزامه ، وإظهاره ، والدعوة إليه، والسير عليه ، والثبات عليه ، واجتماعٌ علـى ذلـك قـولاً وعمـلاً وعقيدةً ، وعدم التفرقة في ذلك ، وبهذا تجتمع كلمـة المسـلمين ، ويتحد صفهم ، ويقوى جانبهم ، ويهابهم عدوهم .

هكذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ كلهم أُمـروا بـأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ، ولا يخفى على ذي اللب ما في إقامة الـدين والاجـتماع عليه وعدم التفرق - من قوة المسلمين وتمكنهم من أخذ حقوقهم من أعدائهم ، وانتصافهم منهم ، وهيبة الأعـداء لهـم في نفـس الوقـت ، لما يشـاهدونه مـن اتحادهم واجتماعهم ،

وإقامتهم دينهم ، وتعاونهم في ذلك ، وتواصيهم به . فالاجتماع والاتحاد والتعاون الصادق على الحق في كل أمة لا شك أنه سر النجاح وطريق الفوز والكرامة في الدنيا والآخرة .

فعلمنا بهذا أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أرسلوا بالإسلام ، وكلهم دعوا إلى الإسلام ، وكلهم دينهم الإسلام ، وكلهم أمروا بإقامة الإسلام ، وإقامته كما تقدم إظهاره للناس ، ودعوتهم إليه ، والاستقامة عليه ، علماً وعملاً وعقيدة ، والاجتماع على ذلك ، وذلك بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وتلقي ما جاء به الرسول الأمين بالقبول والعمل ، والاجتماع على ذلك ،والحذر من الخلاف والتفرق .

وبهذا يزداد الداخلون في الدين ، ويعظّمون أمر الدين ويعظمون الدعاة إليه ، ويعرفون صلاحه لكل عصر ، وأنه دين حق ، من تمسك به أفلح ونجح ، وفاز بالعزة والكرامة والاتحاد والقوة والاجتماع مع إخوانه . فدين نوح وهود وصالح ومن بعدهم من الأنبياء : هو الإسلام عقيدة وشريعة . فالعقيدة التي

هي الإيمان بالله ورسوله المبعوث في كل وقت بالنسبة إلى القوم المبعوث إليهم - هي الإسلام بالنسبة إليهم ، وهو إيمانهم بما جاء به رسولهم ، وتوحيدهم لربهم ، وانقيادهم للشرع ، واجتماعهم عليه بالأقوال والأعمال والعقيدة ، لكن لكل نبي شريعة ولكل رسول شريعة ، كما قال الله جل وعلا : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [سورة المائدة ، ٤٨] .

وما ذاك إلا لأن ظروف الناس ، وأحوالهم ، وتحملهم للتكاليف ، وإدراكهم للمقصود - يتفاوت كثيراً ؛ فليست عقول الناس في جميع الأزمنة على حد سواء ، وليست ظروفهم وأحوالهم وقدرهم على حد سواء ، فالله جل وعلا هو العليم بأحوال العباد، وهو الخبير بمدى استطاعتهم ، وهو العليم بمدى تقبلهم الحق وبحقيقة العقول التي يحملونها ، وهو سبحانه يرسل الرسل في كل وقت ، وفي كل أمة ، بما يليق بذلك الوقت وبتلك الأمة ؛ لأن ذلك هو اللائق بحكمته وعلمه ورحمته وإحسانه سبحانه وتعالى .

فليس قوم نوح في العقول والتحمل والتقبل لما يجيء به

الرسـول كأمة موسى مثلاً ، فبين الناس فـروق كبـيرة في أوقـاتهم وعقولهم ولغاتهم وعوائدهم وغير ذلك .

فكان من حكمة الله عـز وجـل أن كـانت الشـرائع - وهـي الأحـكام - متنوعة ومتفاوتـة ، أمـا الأصـل فمتحـدٌ ؛ الـذي هـو عبادة الله ، وتوحيده ، والإيمـان بـه ، والإيمان برسـله ، والإيمـان بملائكته ، واليوم الآخـر ، والكتـب ، والإيمـان بـالقدر ، والإيمـان بإقامة الدين والاجتماع عليه ، وإقامة الشـريعة ، وطاعـة الرسـول فيما جـاء بـه . هـذا أمـر متفـق عليـه بـين الرسـل عليهـم الصـلاة السلام، وهذه أصـول اجتمعوا عليها ودعـوا إليها ، كما قال اللـه جل وعلا : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل ، ٣٦] هـذه دعوتهـم جميعـاً ؛ يدعون الناس إلى عبادة الله ، والتوجه إليـه ، وتوحيـده في العبـادة دون كل ما سواه ، في كل شيء من صلاة وصوم وغير ذلك .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء ، ٢٥] .

وقال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم

مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران، ٨-٨٢]

وقال عز وجل : ﴿ قُولُواْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة، ١٣٦] .

فعلم بذلك أن الرسل جاءوا بهذا ، وأن علينا أن نؤمن بذلك، وأن نقبل ذلك ، وألا نفرق بين الرسل في هذه الأشياء ، كما قال عز وجل : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة البقرة، ٢٨٥] .

فلما كانت الشرائع مختلفة متنوعة على حسب حكمة الله وعلمه بأحوال العباد ، وعلى حسب الظروف في الأمم المرسلة

إليهم الرسل ، وأحوالهم وعقولهم ، ومدى تحملهم للشرائع والتكاليف مهما كانت الشرائع مختلفة ، قد يجب في هذه الشريعة ما لا يجب في هذه الشريعة ، وقد يحرم في هذه الشريعة ما لا يحرم في هذه الشريعة ؛ لحكمة بالغة وأسرار عظيمة اقتدتها حكمة الله وعلمه وقدرته وكمال إحسانه وجوده جل وعلا .

وقد يكون بعض التشديد في بعض الشرائع وبعض الآصار والأغلال لحكم وأسرار اقتضت ذلك .

وقد يكون من أسباب ذلك عصيان الأمة التي أرسل إليها الرسول ، وجرأتها على الله وعدم مبالاتها بأوامره ونواهيه ؛ فيشدد عليهم في التشريع لأسباب ذلك ، كما قال عز وجل : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَواْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ ﴾ [سورة النساء، ١٦٠-١٦١] فبين سبحانه أنه حرم على بني إسرائيل من اليهود طيبات أحلت لهم بأسباب أعمالهم الخبيثة .

ولما كان نبينا محمد عليه الصلاة والسلام هو الخاتم للأنبياء

والرسل جميعاً - كانت شريعته أكمل الشرائع وأتمها ؛ لكونها شريعة خاتمة للشرائع ، ولكونها شريعة عامة لجميع الأمة إلى يوم القيامة ، فلما كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ، وكان رسولاً عاماً إلى جميع الثقلين - اقتضت حكمة الله سبحانه أن تكون شريعته أوفى الشرائع وأكملها ، وأتمها انتظاماً لمصالح العباد في المعاش والمعاد ؛ فهو عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين ، كما قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [سورة الأحزاب ، ٤٠] وتواترت الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام بأنه خاتم النبيين .

وهذا أمر - بحمد الله - مجمع عليه ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام ؛ قد أجمع المسلمون على أن من ادعى النبوة بعده فهو كافر كاذب ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل كافراً .

والله سبحانه وتعالى قد أرسله إلى الناس كافة بإجماع المسلمين أيضاً ، وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع ، إلى العرب

والعجم ، والأحمر والأسود ، والجن والإنس ، هو رسول الله إلى الجميع من حين بعثته عليه الصلاة والسلام إلى أن تقوم الساعة ، كما يدل على ذلك قوله جل وعلا : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأعراف، ١٥٨]، فعلق الله جل وعلا الهداية على اتباعه والإيمان به. فعلم أن لا هداية ولا إيمان إلا من طريق اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، والسير على منهاجه بعد ما بعثه الله .

قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران ، ٣١] أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للناس : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، فعلم أنه لا طريق إلى محبة الله ومغفرته إلا باتباعه عليه الصلاة والسلام ، وقال جل وعلا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سورة سبأ ، ٢٨] ، يعني إلى الناس كافة . وقال جل وعلا : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ

عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [سورة الفرقان ، ١] ، فأخبر جل وعلا أنه نذير للعالمين . والعالمون : هم جميع الناس ، وقيل : إنه القرآن ، وقيل : إنه الرسول . وكلاهما حق ، فهو نذير للعالمين ، والقرآن نذير للعالمين . فهو نذير ، وكتابه نذير للعالمين ، للمخلوقات كلها العقلاء المكلفين من الجن والإنس .

وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام : « **كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة** » وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « **والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار** » .

وهذا أمر معلوم من دين الإسلام بالضرورة أنه رسول الله إلى الجميع ، إلى اليهود والنصارى ، والعرب والعجم ، وجميع أجناس بني آدم ، وجميع الجن ، من أجاب دعوته وسار في سبيله فله النجاة والسعادة والعاقبة الحميدة ، ومن حاد عن سبيله فله

الخيبة والندامة والنار ، كما قال جل وعلا : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [سورة النساء ، ١٣-١٤] .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر ، ٧]

وقال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام : « **كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** » قيل : يا رسول الله ! ومن يأبى ؟ قال : « **من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى** » ، وما ذلك إلا لأن رسالته عامة وهو خاتم النبيين .

لهذا كله كانت شريعته أكمل الشرائع ، وكانت أمته خير الأمم، كما قال جل وعلا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران ، ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [سورة المائدة ، ٣] ، فأخبر سبحانه أنه أكمل لهذه الأمة دينها ،

والأديان السابقة كل واحد مكمل بالنسبة إلى الرسول الذي أرسل به ، والقوم الذين أرسل إليهم ، إكمالاً يناسبهم ويليق بظروفهم وأحوالهم ، أما بالنسبة إلى هذه الأمة فقد أكمل لها الدين في جميع المعاني ، وجعله ديناً صالحاً لجميع ظروفهم وأحوالهم ، وغناهم وفقرهم ، وحربهم وسلمهم، وشدتهم ورخائهم، وفي جميع أصقاع الدنيا ، وفي جميع الزمان إلى يوم القيامة .

وقد أردت أن أذكر شيئاً يسيراً من محاسن هذه الشريعة وأسرارها العظيمة ، أما الاستقصاء فلا يخفى على من له أدنى علم أنه لا يمكن أن يستقصي أحد محاسن هذه الشريعة، كيف يستطيع أحد أن يحصي فضائلها ، وهي شريعة من حكيم عليم قد علم كل شيء فيما مضى وفيما يأتي إلى يوم القيامة ، وهو العالم بأحوال عباده وأسرار تشريعه سبحانه وتعالى ، ولكن حَسْبُ طالب العلم أن يذكر شيئاً من محاسن هذه الشريعة ، فالله جل وعلا قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ

اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية ، ١٨-١٩] .

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه جعل نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام (**على شريعة من الأمر**) والمعنى : على طريقة بينة واضحة ظاهرة من الأمر ، أي من الدين القويم ، وهو دين الإسلام ، ثم قال : (**فاتبعها**) : أي الزمها وتمسك بها ، وهو أمر له عليه الصلاة والسلام ، وأمر لجميع الأمة بذلك ، فالأمر له أمر لنا إلا ما دل الدليل على تخصيصه به عليه الصلاة والسلام ، ثم قال : (**ولا تتبع أهوآء الذين لا يعلمون**) ، يحذر سبحانه من اتباع أهواء الناس ، وكل من خالف الشريعة فهو من الذين لا يعلمون .

ثم بين جل وعلا أن الناس لن يغنوا عنه من الله شيئاً ، يعني : لو مال إليهم واتبع أهواءهم - والله يعصمه من ذلك - فلن يغنوا عنه من الله شيئاً . فالأمر بيد الله، وهو القادر على كل شيء جل وعلا ، فلا يمنع أحد رسوله عليه الصلاة والسلام مما أراده الله به من عزة ونصر .

فالمقصود من هذا بيان أن النصر والتأييد بيده سبحانه وتعالى، وأنه كفيل بنصره وتأييده وتبليغ رسالته ، وأن الناس مهما كانوا من قوة وكثرة فلن يغنوا عنه من الله شيئاً ؛ فلا وجه للميل إليهم واتباع أهوائهم ؛ وهذا من باب التحذير ، وإلا فالرسول ﷺ معصوم من اتباع أهوائهم ؛ فالله قد عصمه وصانه وحماه وأيده ، ولكن المقصود تعليمنا وإرشادنا أن السعادة والنجاة والقوة والعزة والسلامة في اتباع الشريعة ، والتمسك بها ، والدعوة إليها ، والحفاظ عليها .

والشريعة في اللغة العربية : الطريقة الظاهرة البينة الموصلة إلى النجاة . وتطلق الشريعة في اللغة العربية أيضاً على الطريق الموصل إلى الماء وما ذلك إلا لأنه يوصل إلى الحياة ، كما قال جل وعلا : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠]

فالشرائع التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام طرق ظاهرة بينة واضحة لمن تأملها ، توصل من استقام عليها واتبعها وأخذ بها إلى النجاة والسعادة ، والحياة الطيبة الكريمة في الدنيا والآخرة ، فشريعة نبينا عليه الصلاة والسلام أفضلها وأكملها

وليس فيها آصار ولا أغلال ، قد وضع الله عن هذا النبي وعن أمته الآصار والأغلال ، فلله الحمد والمنة ؛ شريعة سمحة ، كما قال في الحديث الصحيح : « **بعثت بالحنيفية السمحة** » وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه** » ، وقال لما بعث معاذاً وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن : « **يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا** » .

فهذه الشريعة : شريعة التيسير ، وشريعة المساهمة ، وشريعة الرحمة والإحسان ، وشريعة المصلحة الراجحة ، وشريعة العناية بكل ما فيه نجاة العباد وسعادتهم وحياتهم الطيبة في الدنيا والآخرة

فالله جل وعلا بعث نبينا وإمامنا محمداً عليه الصلاة السلام بشريعة كاملة منتظمة للمصالح العاجلة والآجلة ، فيها الدعوة إلى كل خير ، وفيها التحذير من كل شر ، وفيها توجيه العباد إلى أسباب السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة ، وفيها تنظيم العلاقات بين العباد وبين ربهم وبين أنفسهم تنظيماً عظيماً حكيماً .

وأهم ذلك وأعظمه ما جاءت به الشريعة العظيمة الكاملة من

إصلاح الباطن ، وتوجيه العباد إلى ما فيه صلاح قلوبهم واستقامتهم على دينهم ، وإيجاد وازع قلبي إيماني يزعهم إلى الخير والهدى ويزجرهم عن أسباب الهلاك والردى ، فالله عز وجل أمر الناس في كتابه الكريم بما فيه صلاح القلوب وإصلاح البواطن . وعنيت الشريعة بهذا أعظم عناية ، وفي الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من ذلك ما يشفي ويغني ؛ وما ذلك إلا لأن صلاح الباطن واستقامة القلوب وطهارتها - هو الأصل الأصيل والركيزة العظيمة لإصلاح العبد من جميع الوجوه ، وتأهيله لتحمله الشريعة وأداء الأمانة وإنصافه من نفسه ، ولأدائه الحق الذي عليه لإخوانه ، فكل عبد لا يكون عنده وازع قلبي من إيمان يزعه إلى الخير ويزجره عن الشر لا تستقيم حاله مع الله ولا مع العباد .

ولهذا جاءت الآيات القرآنية الكريمة بالحث على خشية الله وخوفه ، ومراقبته ورجائه ، ومحبته والتوكل عليه سبحانه ، والإخلاص له والإيمان به، وعلق سبحانه على ذلك المغفرة والجنة، والرضا والكرامة ، لماذا ؟ لأن العبد إذا استقام قلبه على الإخلاص

لله ، ومحبته ، والإيمان به ، وخشيته ، والتوكل عليه ، ومراقبته في جميع الأحوال ، إذا استقام قلب العبد على هذا – سارع إلى أوامر الله ، وتقبل توجيه ربه وتوجيه رسوله عليه الصلاة والسلام بكل انشراح وبكل رضى وبكل طمأنينة من دون قلق ولا ضعف ، بل يستقبل ذلك بقوة وارتياح وانبساط ، كما قال جل وعلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الملك ، ١٢] ، يحثهم سبحانه في هذا على أن يخشوه جل وعلا ويعظموه ويراقبوه .

وقال عز وجل : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [سورة الرحمن ، ٤٦] ، وقال عز وجل : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ [سورة الزمر ، ٢-٣] وقال عز وجل : ﴿ فَادْعُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر ، ١٤] ، وقال عز وجل : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [سورة الكهف ، ١١٠] . وكل هذه آيات مكية يوجه الله بها العباد إلى الإخلاص له ، والإيمان به ، وخشيته ورجائه سبحانه وتعالى .

ويقول الله عز وجل : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة المائدة ، ٢٣] ، ويقول جل وعلا : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة ، ٥٤] ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران ، ٣١] .

ففي هذه الآيات حث الناس على محبة الله واستحضار عظمته والتوكل عليه والتفويض إليه ، فالعبد إذا عرف الله حق المعرفة بأسمائه وصفاته وعظيم حقه ، وتوكل عليه وفوض إليه أمره ، واعتمد عليه مع مسارعته إلى الأخذ بالأسباب والعمل بها. فالمتوكل قد فوض أمره إلى الله ، واعتمد على ربه عز وجل ، وسارع إلى فعل الأوامر وترك النواهي والأخذ بالأسباب والعناية بها حتى يؤدي الواجب على أكمل وجه عن إخلاص لله ، وعن محبة له واعتماد عليه ، وعن ثقة به عز وجل .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [سورة الحج ، ٣٠] وقال عز وجل: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [سورة الحج ، ٣٢]

هذا كله يورث القلوب وازعاً عظيماً من تعظيم شعائر الله ومن تعظيم حرمات الله ، حتى يكون عند العبد وازع من قلبه ودافع من خشيته، وحافز من إيمانه ، إلى أداء الواجبات وإلى ترك السيئات، وإلى الإنصاف من نفسه وإلى أداء الأمانة، أداء الحق الذي عليه لأخيه .

ثم إنه سبحانه وتعالى مع ذلك كله شرع للناس عبادات تصلهم بالله ، وتقربهم لديه ، وتزكيهم، وتقوي في قلوبهم محبته والتوكل عليه ، والأنس بمناجاته وذكره ، والتلذذ بطاعته سبحانه وتعالى ، شرع لهم الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر ، بما في ذلك من استشعار تعظيم الذي شرع هذه العبادة التي بها تطهيرهم من ذنوبهم ، وتطهيرهم من أحداثهم ، وتنظيفهم وتنشيطهم على العمل ، وجعل هذه الطهارة مفتاحاً للصلاة التي هي أعظم عبادة وأكبر عبادة بعد الشهادتين ، وشرع لهم الصلاة في أوقات معينة خمسة ، وكانت في الأصل خمسين ، فالله جل وعلا قد لطف بعباده ويسر ورحم فجعلها خمساً بدل خمسين ، وكتب لهم سبحانه أجر الخمسين ، وجعلها في أوقات متعددة حتى لا يغفل

العبد عن ذكر ربه ، وحتى لا ينسى ربه : الفجر في أول النهار بعد قيامه من النوم ، وعند فراغ قلبه يقبل على آيات الله وسماعها ويستمع للإمام في صلاة الفجر وهو يقرأ جهراً وينتفع بذلك ، ويبدأ نهاره بذكر الله وطاعته سبحانه وتعالى ، فيكون في هذا عون له على ملاحظة حق الله ، وعلى تعظيم حرمات الله في صحوته ، وفي أعماله ، وفي بيعه وشرائه وغير ذلك ، ثم يجيء وقت الظهر فيعود إلى الصلاة ، وإلى الذكر ، وإلى العبادة ، وإن كان هناك غفلة زالت بعوده إلى هذه العبادة ، ثم كذلك العصر بينما هو قد اشتغل بأعمال داخلية أو خارجية فإذا الوقت الآخر قد حضر فينتبه ويرجع إلى ذكر الله وطاعته عز وجل ، ثم يأتي المغرب ، ثم يأتي العشاء فلا يزال في عبادة وذكر، فيما بين وقت وآخر ؛ يذكر فيها ربه ، ويحاسب فيها نفسه ويجاهدها لله ، ويتقرب إليه بالأعمال التي يحبها الله سبحانه وتعالى .

وشرع له مع ذلك عبادات أخرى بين هذه الأوقات ، كصلاة الضحى وراتبة الظهر والمغرب والعشاء ، والتهجد بالليل ، إلى أنواع من العبادات ، والصلاة ، والأذكار ، والاستغفار ،

والدعاء ، تذكره بالله وتعينه على طاعته وذكره سبحانه وتعالى هذا كله من فضله جل وعلا وعظيم إحسانه .

ثم جعل تعالى لهذه الصلاة نداءً عظيماً على رؤوس الأشهاد ليتضمن تعظيم الله سبحانه بالتكبير والشهادة له بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، وفيه الدعوة إلى هذه الصلاة بقوله : حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، ثم التكبير لله ، ثم الشهادة له بالوحدانية سبحانه وتعالى . فجعل أصل الدين الذي هو الإقرار بالشهادتين دعوة للصلاة ونداء لها ، فالعباد ينتبهون بهذا الذكر وبهذا النداء في بيوتهم ، وفي مضاجعهم ، وفي مراكبهم ، وفي كل مكان ينبهون لهذه العبادة ، ولحق الله وعظمته بهذا النداء العظيم الذي لا يسمعه شجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد لصاحبه يوم القيامة كما جاء بذلك الحديث الشريف عن رسول الله .

ثم شرع الله للناس أيضاً زكاة ، وجعلها حقاً في أموالهم يربط الأغنياء بالفقراء ويصلهم بهم ، وفي ذلك فوائد كثيرة منها مواساة الفقراء والإحسان إليهم، ومنها مواساة أبناء السبيل ، ومنها مواساة المؤلفة قلوبهم ، وتقوية إيمانهم ، ودعوتهم إلى

الخير، ومنها مساعدة الرقاب على العتق وفك الأسارى ، ومنها مساعدة الغارمين على قضاء ديونهم ، ومنها مساعدة الغزاة على الجهاد في سبيل الله ، فهي حق عظيم في المال يزكي صاحبه ، وينمي ثروته ، ويرضي ربه ، والله مع هذا يخلفه عليه سبحانه وتعالى بأحسن خلف ، مع هذه الفوائد العظيمة ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيهاَ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة ، ٦٠] ، ففي هذه الفريضة وفي هذا الحق شكر لله عز وجل على نعمه، وقربة إليه سبحانه وتعالى بأداء هذا الحق والإنفاق من المال طاعة لله وإخلاصاً له ، وتقرباً إليه جل وعلا ، ومع ذلك في نفس الوقت فيه إحسان للعباد ومواساة لهم ومساعدة على كل خير.

أما الصوم فكلكم يعلم ما فيه من الخير العظيم والمصالح الكبيرة التي منها تطهير النفس من أشرها وبطرها، وشحها ، وبخلها، وكبرها، ومن ذلك أن الصائم يعرف بالصيام حاجته وضعفه وشدة ضرورته إلى ما أباح الله من الطعام والشراب

وغيرهما ، ومنها تذكير العبد بإخوانه الفقراء والمحاويج حتى يواسيهم ويحسن إليهم ، ومنها تمرين العبد على مخالفة الهوى وتعويده الصبر على ما يشق على النفس إذا كان في ذلك طاعة ربه ورضاه ، فالصائم في الصيام يخالف هواه ويجاهد نفسه ويعودها الصبر عما يوافق هواها من مأكل ومشرب ومنكح في طاعة ربها ومولاها عز وجل .

وفي الصوم من الفوائد والحكم والأسرار ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **كل عمل ابن آدم له ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، يقول الله عز وجل : إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك** » . والأحاديث في فضله وعظم شأنه كثيرة .

أما الحج ففيه من الفوائد العظيمة من الصلة بالله والتقرب إليه ، ومفارقة الأوطان والأهل والعشيرة لأداء هذه الفريضة العظيمة وزيارة البيت العتيق – ما لا تحيط به العبارة ، فإنه في

هذه العبادة يركب الأخطار ، ويقطع الفيافي والقفار ، ويشق الأجواء ، يرجو رحمة ربه ويخاف عقابه سبحانه وتعالى ، فما أحراه بالثواب الجزيل والأجر العظيم من المولى الكريم عز وجل .

أما ما شرع الله سبحانه وتعالى في هذه العبادة من الإحرام والتلبية ، واجتناب كثير من العوائد، وكشف الرجل رأسه وخلع الثياب المعتادة ، والطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمي الجمار ، والتقرب إلى الله سبحانه بذبح الهدايا ، إلى غير ذلك مما شرع الله في الحج - فمما شهدت العقول الصحيحة والفطر المستقيمة بحسنه ، وأنه لا حكمة فوق حكمة من شرعه وأمر به عباده. يضاف إلى ذلك ما في الحج من اتصال المسلمين بعضهم ببعض، وتشاورهم في كثير من أمورهم ، وتعاونهم في مصالحهم العاجلة والآجلة واستفادة بعضهم من بعض ، إلى غير ذلك من الفوائد ، فكل ذلك شاهد للذي شرعه بأنه سبحانه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، وكل ذلك من جملة منافع الحج التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [سورة الحج ، ٢٨] ، فالحج مؤتمر إسلامي عظيم وفرصة

للمسلمين ينبغي أن يستغلوها في شتى مصالحهم ، وأن يستفيدوا منها لأمر دنياهم وأخراهم ، فنسأل الله أن يوفقهم لذلك ، وأن يجمع كلمتهم على الهدى ، إنه خير مسؤول وأكرم مجيب .

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الله جل وعلا أمر الرسل بإقامة الدين ، فالرسل بعثوا لإقامة الدين ونبينا محمد ﷺ هو أكملهم في ذلك ، وهو إمامهم وسيدهم وخاتمهم ، بعث لإقامة الدين أيضاً .

فهذه العبادات وهذه التوجيهات من الله عز وجل كلها لإقامة الدين وأن يكون عندك وازع إيماني يحملك على أداء الواجبات ، ومعاملة إخوانك بأحسن المعاملات ، وعلى إنصافهم وأداء حقوقهم ، وعلى أداء الأمانة في كل شيء والرجوع إلى الله في كل شيء ؛ حتى تكون عبداً ممتثلاً سائراً على الوجه الذي شرعه الله ، لا تتبع هواك ولا تقف عند حظك .

ومما يتعلق بما تقدم قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسدكله ؛ ألا وهي القلب**)) فأخبر عليه الصلاة والسلام أن صلاح العبد بصلاح قلبه

فمتى صلح قلبه استقام العبد مع الله عز وجل ومع العباد ، ومتى خبث القلب وفسد ؛ خبث العبد وفسدت حاله، وهذا يبين لنا ما تقدم من أن هذه الشريعة عنيت عناية عظيمة بأسباب إصلاح القلوب .

وقال عليه الصلاة والسلام: ((**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**)) . فبين عليه الصلاة والسلام أن موضع النظر من ربنا عز وجل ، القلب والعمل ، أما مالك وبدنك فلا قيمة لهما وليسا محل النظر إلا إذا استعملت مالك وبدنك في طاعة ربك ، وإنما محل النظر قلبك وعملك ، فإذا استقام قلبك على محبة الله وخشيته ومراقبته والإخلاص له استقامت أعمالك واستقام أمرك ، وإن كانت الأخرى فسدت حالك وفسد عملك ولاحول ولا قوة إلا بالله.

ثم إن هذه الشريعة العظيمة أيضاً نظمت العلاقات بين الأسرة في نفسها ، أسرة الإنسان وقراباته بما شرع الله من : صلة الرحم، والمواريث ، والتعاون فيما بين الأسرة حتى تكون مرتبطة متعاونة على ما يرضي ربنا عز وجل ، متحابة فيما بينها ، هذا من رحمته

وإحسانه جل وعلا أن جعل بين ذوي القرابات صلة خاصة تصل بعضهم ببعض، وتجمع بعضهم إلى بعض ، وتربط بعضهم ببعض ؛ فشرع صلة الرحم، وحث على ذلك وتوعد على ترك ذلك ، فقال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((**لا يدخل الجنة قاطع**)) يعني : قاطع رحم، وقال جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** ﴾ [سورة محمد ، ٢٢-٢٣] ، وفي الحديث أيضاً : ((**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله ، فليصل رحمه**)) .

وهكذا شرع العلاقات الطيبة بين المسلمين في جميع المعاملات فجعلهم إخوة يتحابون في الله ، ويتعاونون على الخير في جميع المجالات . وهذه أعظم صلة وأعظم رابطة بين المسلمين ، الرابطة الإسلامية والأخوة الإيمانية ، وهي أعظم رابطة ، وهي فوق رابطة القرابة والصداقات وكل رابطة بين الناس ، فالرابطة الإسلامية والأخوة بين المسلمين فوقها ، فالله سبحانه وتعالى جعل

المسلمين فيما بينهم إخوة وأوجب عليهم أن يحب بعضهم لبعض الخير، ويكره له الشر ، وأن يكونوا فيما بينهم متحابين متناصحين متعاونين حتى يكونوا كتلة واحدة ، وجماعة واحدة، وصفاً واحداً، وأمة واحدة : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء ، ٩٢] .

ويقول جل وعلا: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة ، ٧١] .

ويقول عز وجل : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [سورة آل عمران ، ١٠٣] ، فيأمرهم بالاجتماع والاعتصام بحبل الله : وهو دينه سبحانه .

ويقول عز وجل: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة المائدة ، ٢] ، فبين سبحانه وتعالى أن الواجب على الجميع أن يتعاونوا على البر والتقوى ، وأن يكونوا أولياء لا غل بينهم ،

ولاحقد ولاحسد، ولا تباغض ولا تقاطع ، لكن أولياء يتناصحون ويتعاونون على الخير. وهذا هو التضامن الإسلامي الذي يدعو إليه كل مسلم ، وكل مخلص لدينه، وكل مؤمن، وكل محب للإسلام.

فالتضامن الإسلامي : هو التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والتناصح في الله ، والتكافل والتكاتف على كل ما فيه صلاح المسلمين ونجاحهم وحفظ حقوقهم وإقامة كيانهم وصيانتهم من شر أعدائهم ، هذا هو التضامن .

وهذا هو التعاون : أن يكون المسلمون حكومات وشعوباً متعاونين على البر والتقوى متناصحين في الله ، متحابين فيه ، متكاتفين على كل ما يقيم دينهم ، ويحفظ كيانهم ، ويوحد صفوفهم ، ويجمع كلمتهم ، وينصفهم من عدوهم ، ويورثهم العزة والكرامة .

فبهذا الاجتماع وهذا التعاون يحميهم الله من شر أعدائهم ومكائدهم ويجعل لهم الهيبة في قلوب الأعداء لاجتماعهم على الحق وتعاونهم وتكاتفهم وتناصرهم على دين الله مخلصين لله قاصدين وجهه الكريم لا لغرض آخر ، كما قال عز وجل :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد ، ٧] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج ، ٤٠-٤١] .

فهو سبحانه وتعالى علق نصرهم وحفظهم وحمايتهم بنصرهم دينه واجتماعهم على دينه وتعاونهم واعتصامهم بحبل الله عز وجل . فبالتضامن الإسلامي والتعاون الإسلامي كل خير وكل عزة في الدنيا والآخرة للمسلمين إذا صدقوا في ذلك وتعاونوا عليه.

ومن محاسن هذه الشريعة أيضاً أن جعلت المؤمن أخا المؤمن ينصح له ويحب له الخير ، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويعينه على الخير ويمنعه من الشر ، كما قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام : ((**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**))، وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [سورة الحجرات ، ١٠] .

فالمؤمن أخو المؤمن يعينه على الخير ويدعوه إليه وينهاه عن الشر ويأخذ على يديه ، كما قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام : ((**انصر أخاك ظالماً أومظلوماً**)) قالوا : يا رسول الله نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : ((**تمنعه من الظلم فذلك نصره**)) فنصر الظالم : منعه والأخذ على يديه . فالمسلمون إذا قاموا بهذا وتعاونوا عليه حصل لهم الخير العظيم والعزة والكرامة وجمع الكلمة وهيبة الأعداء والعافية من مكائدهم .

ومن محاسن هذه الشريعة أيضاً أنها جعلت للمعاملات بين المسلمين نظاماً حكيماً يتضمن العدل والإنصاف وإقامة الحق فيما بينهم من دون محاباة لقريب أو صديق ، بل يجب أن يكون الجميع تحت العدل وتحت شريعة الله لا يحابى هذا لقرابته ، ولا هذا لصداقته ، ولا هذا لوظيفته ولا هذا لغناه أو فقره ، ولكن على الجميع أن يتحروا العدل في معاملاتهم من الإنصاف والصدق وأداء الأمانة ، كما قال جل وعلا : ﴿ **يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ يَجرِمَنَّكُم شَنَئَانُ قَومٍ عَلَى أَلاَّ تَعدِلُواْ ٱعدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقوَى** ﴾ [سورة المائدة ، ٨] .

وقال جل وعلا : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى أَنفُسِكُم أَوِ الوَالِدَينِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُن غَنِيّاً أَو فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ﴾ [سورة النساء ، ١٣٥] ، وقال جل وعلا : ﴿ وَإِذَا قُلْتُم فَاعدِلُواْ وَلَو كَانَ ذَا قُربَى وَبِعَهدِ اللَّهِ أَوفُواْ ﴾ [سورة الأنعام ، ١٥٢] .

فالله سبحانه وتعالى شرع للجميع أن يتعاملوا بالعدل والإنصاف وأن يقيموا الحق فيما بينهم على طريق العدل والقسط من دون محاباة لزيد أو عمرو أو صديق أو قريب أو كبير أوصغير .

ومن محاسن هذه الشريعة وعظمتها وصلاحها لكل أمة ولكل زمان ومكان أن علق سبحانه وتعالى معاملاتهم على جنس العقود وجنس البيع وجنس الإجارة ، ونحو ذلك من دون أن يحدد لهذه العقود ألفاظاً معينة خاصة ، حتى يتعامل كل قوم وكل أمة بما تقتضيه عوائدهم وعرفهم ومقاصدهم ولغتهم ، وما يقتضيه

النظر في العواقب ، فجعل لمعاملاتهم عقوداً شرعها لهم سبحانه وتعالى ولم يحدد ألفاظاً بل جعلها مطلقة ، كما شرع لهم في أنكحتهم وطلاقهم ونفقاتهم ودعاواهم وخصوماتهم نظاماً حكيماً يتضمن الإنصاف والعدل ، وأن تراعى في ذلك العوائد والعرف ، والاصطلاحات والبينات ، والمقاصد والظروف ، والأزمنة والأمكنة في حدود الشريعة كاملة حتى لا يقضىَ على أحد بغير حق ، فقال جل وعلا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ [سورة النحل ، ٤٤] فأطلق العقود ، وقال جل وعلا : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَواْ ﴾ [سورة البقرة ، ٢٧٥] ، وقال جل وعلا : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [سورة الطلاق ، ٦] .

وجاءت الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بالمساقاة والمزارعات ، والشركات ، والجعالات ، والضمانات ، والأوقاف ، والوصايا ، والنكاح والطلاق والرضاع وغير ذلك بما يطابق ما جاء به القرآن الكريم .

وهذه الأنظمة التى جاء بها القرآن وصحت بها السنة أنظمة واضحة بينة ، يستقيم عليها أمر العباد ، وتصلح لهم فى كل زمان ومكان ، ولا تختلف عليهم ، بل يكون لهؤلاء عرفهم في بيعهم وشرائهم ونكاحهم وطلاقهم وأوقافهم ووصاياهم وغير ذلك حتى لا يربط هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء ، كما قال جل وعلا تنبيهاً على هذا المعنى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [سورة البقرة ، ٢٣٣] ، يعني : بالمتعارف . وقال النبي ﷺ في حديث خطبته العظيمة في حجة الوداع : ((ولهن عليكم [أي للزوجات] رزقهن [أي كسوتهن] بالمعروف)).

وقال جل وعلا : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء ، ١٥] لإقامة الحجة وقطع المعذرة ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة التوبة ، ١١٥] ، وقال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل ، ٤٤] .

فبين سبحانه وتعالى أنه لابد من بيان ، ولابد من إقامة حجة حتى لا يؤخذ أحد إلا بعد إقامة الحجة عليه .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في هذا المعنى في كتابه : (إعلام الموقعين) فصلاً عظيماً بين فيه أن الشريعة راعت عوائد الناس ومقاصدهم وعرفهم ولغتهم حتى تكون الأحكام والفتاوى على ضوء ذلك ، فقد يكون عرف هذه البلدة وهذا الإقليم غير عرف الإقليم الآخر والبلدة الأخرى ، وقد يكون لهذ الشخص من النيات والمقاصد ما ليس لشخص آخر ، ويكون لهؤلاء من العوائد ما ليس للآخرين ، وقد تكون أزمان لا يليق أن يفعل فيها ما يليق أن يفعل في الزمن الآخر ، كما كانت الدعوة في عهد النبي ﷺ في مكة غير حالها في المدينة ؛ لاختلاف الزمان والمكان ، والقوة والضعف ، وهذا من عظيم حكمة الله جل وعلا ورعايته لأحوال عباده ، فقد يقصد بعض الناس بألفاظ البيع والهبة ما يقصد به آخرون معنى آخر أو عقداً آخر ، وهكذا في الطلاق والإجارة وغير ذلك . وهكذا بعض الأزمان قد يسوغ فيها ما لا يسوغ في أزمان أخرى . ومثل لذلك بأمثلة منها إقامة الحد

في أرض العدو إذا وجد بعض الغزاة ما يوجب الحد في أرض العدو ، فقد نهى النبي ﷺ عن إقامة الحد في أرض العدو . لماذا ؟ لأنه قد يغضب ويستولي عليه الشيطان فيرتد عن دين الإسلام لذلك ولقربه من العدو .

ومن ذلك عام المجاعة فإذا كان عام مجاعة واشتدت الحال بالناس لا ينبغي القطع في هذه الحالة للسارق إذا ادعى أن الذي حمله على ذلك الضيق والحاجة وعدم وجوده شيئاً يقيم أوده ويسد حاجته ؛ لأن هذا شبهة في جواز القطع ، والحدود تدرأ بالشبهات . ولهذا أمر عمر رضي الله عنه وأرضاه في عام الرمادة بعدم القطع ، وحكم بذلك رضي الله عنه وأرضاه لهذه الشبهة .

وهكذا تعتبر العواقب ، كما قال الله سبحانه : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [سورة الحشر ، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود ، ٤٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام ، ١٠٨] . فلابد من رعاية العواقب .

ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله : أن الإنسان إذا كان أمره بالمعروف في بعض الأحيان قد يفضي إلى وجود ما هو أنكر من المنكر الذى يريد أن ينهى عنه ، فإنه لا يجوز له أن ينهى عن المنكر في هذه الحالة إذا كان إنكار المنكر يفضي إلى ما هو أنكر منه وأشد ، فإنك في هذه الحالة لا تنكره لئلا يقع ما هو أنكر منه وهذا من باب مراعاة العواقب . فإذا كان إنسان مثلاً يشرب الخمر ولكنك إذا نهيته عن ذلك ومنعته عن ذلك ومنعته منه اشتغل بقتل الناس ، فحينئذ يكون ترك الإنكار عليه أولى ؛ لأن شرب الخمر أسهل من كونه يتعدى على الناس بالقتل .

والمقصود أن الواجب الرعاية للعواقب كما تراعى عوائد الناس وظروفهم وأحوالهم ، ومقاصدهم ونياتهم في عقودهم ، وتصرفاتهم فيما بينهم ، وفي إقامة الحدود ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يراعى في ذلك تحصيل المصالح ودرء المفاسد ، وتحصيل المصلحة الراجحة بتفويت المصلحة المرجوحة ، وتعطيل المفسدة الكبرى بارتكاب المفسدة الصغرى عند العجز عن تفويتهما جميعاً .

هذه أمور عظيمة جاءت بها هذه الشريعة الكاملة ، ولا شك أن ذلك من محاسنها ، ويجب على ولاة الأمور وعلى كل من له تصرف في أمر الناس أن يراعوها من قاضٍ ومفتٍ وأمير وغيرهم ، هذا كله من محاسن هذه الشريعة العظيمة ومن محاسنها أيضاً أنها جعلت للناس الحرية في الكسب والأخذ والعطاء فيكتسب المسلم ويأخذ ويعطي في حدود الشريعة ،كما قال تعالى : ﴿ **لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ [سورة البقرة ، ٢٨٦] ، له غنم ما أخذ وعليه غرمه ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكفَّ بها وجهه خير له من سؤال الناس أعطوه أو منعوه**)) ، فحث على الكسب وبين أنه خير من سؤال الناس .

ولما سئل عليه الصلاة والسلام ، أي الكسب أطيب ؟ قال : ((**عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور**)) وقال عليه الصلاة والسلام : ((**ما أكل أحد طعاماً أفضل من أن يأكل من عمل يده ، وكان نبي الله داود يأكل من عمل يده عليه الصلاة والسلام**)) .

فالشريعة الإسلامية حبذت الكسب والعمل ، ودعت إلى الكسب والعمل ، وجعلت العامل أحق بكسبه وماله ، وحرمت على الإنسان دم أخيه وماله وعرضه إلا بحق .

وهذا كله من محاسن هذه الشريعة وعظمتها أنها صانت أموال الناس وأعراضهم كما صانت أبشارهم ودماءهم ، وأمرتهم بالكسب وحثتهم عليه ، كما قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام : ((**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا أو كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**))

ولو ذهبت أذكر ما يتعلق بعظمة هذه الشريعة ومحاسنها ورعايتها لمصالح العباد في أمر المعاش والمعاد لطال بنا المقام كثيراً ، ولكن هذه إشارة قليلة تكفي اللبيب في التعرف على عظمة هذه الشريعة ورعايتها لأحوال العباد ومصالحهم في الحاضر والمستقبل .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في هذه الشريعة من الأمر بالتوبة ؛ لأن فيها إصلاح الماضي والعافية من شره ، وقد كان من توبة بعض الماضين قتل النفوس ، فرحم الله هذه الأمة وجعل توبتهم

الندم والإقلاع ، والعزيمة على عدم العودة إلى السيئة ، مع رد المظالم إلى أهلها ، هذا من إحسان الله ورحمته جل وعلا لهذه الأمة ، وهذا من محاسن هذه الشريعة أن جعلت لك أيها الإنسان فرجاً ومخرجاً من ذنوبك وسيئاتك بالتوبة النصوح والاستغفار والرجوع إليه عز وجل والعمل الصالح .

ومن تأمل هذه الشريعة في مواردها ومصادرها ونظر ما جاءت به من الأحكام العظيمة العادلة ، والإحسان إلى الخلق ، ورعاية الفقراء والمحاويج والصغار والكبار وغيرهم - حتى البهائم اعتنت بها الشريعة وحرمت ظلمها والتعدي عليها - عرف أنها شريعة من حكيم حميد خبير بأحوال عباده عليم بما يصلحهم ؛ وعرف أيضاً أنها من الدلائل القاطعة على وجوده سبحانه وتعالى وكمال قدرته وحكمته وعلمه ، وعلى صدق رسوله محمد ﷺ وأنه رسول الله حقاً .

وهكذا من نظر في ما جاءت به الشريعة من رعاية من أحوال العباد أغنيائهم وفقرائهم ، ملاكهم وعمالهم ، حكامهم ومحكومهم ، أفرادهم وجماعاتهم ، قد راعتهم جميعاً وجعلت لهم

أحكاماً مبنية على المصلحة ، والعدالة والإنصاف ، والإحسان والرحمة ، فهذه الشريعة كلها مصالح ، كلها حكم ، كلها هدى ، كلها عدل ، وكل شيء خرج من العدل إلى الجور ، ومن المصلحة إلى العبث ، ومن الرحمة إلى ضدها فليس من الشريعة في شيء ، وإن نسب إليها بالتأويل ، كما ذكر ذلك العلامة ابن القيم رحمه الله ، فالشريعة كلها رحمة وعدل وحكمة ، وكلها رعاية لمصالح العباد بعيدة عن العبث والظلم والمشقة .

ومن تأمل ما تقدم ـ عرف ما أردته في الشق الثاني من عنوان هذه الكلمة . وهو : أن البشر في أشد الضرورة إلى هذه الشريعة؛ لما اشتملت عليه من المصالح العظيمة ، وأنها راعت مصالح العباد في المعاش والمعاد وهيأت لهم السبل التي توصلهم إلى النجاة والسعادة ، وبين سبحانه وتعالى في كتابه أن شريعته صراط مستقيم ، صراط واضح ومنهج قويم ، من استقام عليه نجا ، ومن حاد عنه هلك .

ومن تأمل هذا حق التأمل عرف أن هذه الشريعة كسفينة نوح عليه السلام ؛ من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ،

فهكذا هذه الشريعة العظيمة من تمسك بها واستقام عليها نجا ، ومن حاد عنها هلك ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وبذلك يتضح للبيب أن العباد جميعاً في أشد الضرورة إلى هذه الشريعة ، لما فيها من حل مشاكلهم ، ولما فيها من أحكام عادلة ، ولما فيها من التوسط بين الاشتراكية الإلحادية الماركسية المنحرفة وبين الرأسمالية الغاشمة الظالمة ، فهي وسط في كل شيء ، وسط في اقتصادها بين اشتراكية الملحدين وماديتهم ، وبين الرأسمالية الغاشمة التي لا حدود لها ، فهي وسط بين طرفين ، عدل بين جورين ، وكذلك وسط في جميع أمورها ، لا تطرف في غلو ولا تطرف في جفاء ، بل هي وسط في شأنها كله ، هذه الشريعة العظيمة وسط في الإنفاق والإمساك لا إسراف وتبذير ، ولا إمساك وتقتير ، بل هي وسط بين ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [سورة الإسراء ، ٢٩] ، وكما قال سبحانه في صفات عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [سورة الفرقان ، ٦٧].

فمن تأمل هذا الأمر وعي به عرف أنها دين ودولة ، ومصحف وسيف ، عبادة وحسن معاملة ، جهاد وأعمال صالحة، إنفاق وإحسان ، وطاعة لله عز وجل والرسول ﷺ ، توبة من الماضي وعمل للمستقبل ، فيها كل خير، فهي جمعت خير الدنيا والآخرة ، لا يجوز أن يفصل ديننا عن دنيانا، ولادنيانا عن ديننا ، بل ديننا ودنيانا مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في هذه الشريعة ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُم أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحكُمُواْ بِالْعَدلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّه كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ [سورة النساء ، ٥٨] .

فهي حاكمة على الناس كلهم ، على الأمراء وغير الأمراء ، على الأفراد وعلى الجماعات ، عليهم جميعاً أن يكونوا تحت حكمها وتحت سلطانها في كل شيء ، ومن زعم فصل الدين عن الدولة ، وأن الدين محله المساجد والبيوت ، وأن للدولة أن تفعل ما تشاء وتحكم بما تشاء - فقد أعظم على الله الفرية ، وكذب على الله ورسوله، وغلط أقبح الغلط ، بل هذا كفر وضلال بعيد، عياذاً بالله من ذلك ، بل جميع العباد مأمورون بالخضوع لأحكام

الشريعة وتشريعاتها في العبادات وغيرها ، ويجب على الدولة أن تكون منفذة لحكم الشريعة ، سائرة تحت سلطانها في جميع تصرفاتها ، وعلى هذا سار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وسار أصحابه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم ، وسار عليه أئمة الإسلام بعد ذلك في كل شيء ، وقد جعل الله هذه الشريعة روحاً ونوراً وحياة للناس .

بهذا تعرف أنك في أشد الضرورة إلى هذه الشريعة ، وأن البشر كلهم في ضرورة إليها ؛ لأنها الحياة ، ولأنها النور ولأنها الصراط المستقيم المفضي إلى النجاة ، وما عداها فظلمة وموت وشقاء ، قال الله جل وعلا في كتابه العظيم : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الأنعام ، ١٢٢] ، فجعل من خرج عن الشريعة ميتاً ، وجعل من هدي إليها حياً ، وجعل من أبى الشريعة في ظلمة ، وجعل من وفق لها في فوز وهدى .

وقال جل وعلا : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [سورة الأنفال ، ٢٤] ،

فجعل الاستجابة لله ولرسوله حياة ، وجعل عدم الاستجابة موتاً، فعلم أن هذه الشريعة حياة للأمة ، وهي سعادة للأمة ، ولا حياة لهم ولا سعادة بدون ذلك .

وقال عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّن أمرِنَا مَا كُنتَ تَدرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الشورى ، ٥٢] ، فجعل سبحانه ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام روحاً للعباد تحصل به حياتهم ، ونوراً تحصل به بصيرتهم ونجاتهم وسيرهم على الصراط المستقيم ، فهذه الشريعة روح للأمة ، بها حياتها وقيامها ونصرها ، وهي أيضاً نور لها تدرك به أسباب نجاتها وتهتدي به إلى الصراط المستقيم . والصراط المستقيم هو : الطريق الواضح الذي من سار عليه وصل إلى النجاة ، ومن حاد عنه هلك .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل ، ٩٧] ، فبين سبحانه أن من عمل

العمل الصالح عن إيمان أحياه الله حياة طيبة سعيدة ، وفي هذا إشارة إلى أن حياة الكفار الذين حادوا عن الشريعة ليست حياة طيبة ، بل حياة خبيثة ، حياة مملوءة بالهموم والغموم والأحزان والمشاكل العظيمة والفتن الكثيرة ، فهي حياة تشبه حياة البهائم ليس لأهلها هَمٌّ إلا شهواتهم وحظهم العاجل ، فهي حياة من جنس حياة البهائم ، بل أسوأ وأضل ؛ لكونهم لم ينتفعوا بعقولهم التي ميزوا بها عن البهائم ، كما قال جل وعلا : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَو يَعقِلُونَ إِن هُم إِلاَّ كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان ، ٤٤] ، وقال جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنعَامِ وَالنَّارُ مَثْوىً لَّهُمْ ﴾ [سورة محمد ، ١٢] .

هذه حياة من حاد عن الشريعة ، حياةٌ في الحقيقة هي شبيهة بالموت لعدم إحساسهم بالواجب وعدم شعورهم بما خلقوا له ، وهي حياة في ذاتها تشبه حياة البهائم ؛ لكون البهيمة لا همَّ لها إلا شهواتها وحظها العاجل ، فهكذا الكافر المعرض عن الشريعة ليس له هم إلا شهواته وحظه العاجل ، ولهذا شبه الله أهل

الإيمان والهدى بالمبصرين والسامعين ، وشبه من حاد عن الشريعة بالأعمى والأصم ، وشبه من وفق بالشريعة بالحي ، وشبه من خالف الشريعة بالميت .

وبهذا نعرف أيها الإخوة أن هذه الشريعة : حياة البشر ، وسعادة البشر ، ونجاة البشر في الدنيا والآخرة ، وأنهم في أشد الضرورة إلى اعتناقها والتزامها والتمسك بها ؛ لأن بها حياتهم ونصرتهم ونجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولأن فيها الحكم بينهم بالحق وإنصاف مظلومهم من ظالمهم ، ولهذا كانت هذه الشريعة العظيمة أعظم شريعة وأكمل شريعة ، وكان البشر في أشد الضرورة إلى أن يعتنقوها ويلتزموها ، ولا حل لمشاكلهم ، ولا سعادة لهم أبداً ، ولا نجاة للمسلمين مما وقعوا فيه اليوم ، من التفرق والاختلاف والضعف والذل - إلا بالرجوع إليها ، والتمسك بها ، والسير على تعاليمها ومنهاجها .

وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا جميعاً للفقه فيها والعمل بها ، وأن يهدينا جميعاً وسائر عباده للأخذ بها والسير على ضوئها والاهتداء بنورها ، إنه جواد كريم ، كما أسأله عز وجل أن

يصلح ولاة المسلمين جميعاً ، وأن يوفقهم للتمسك بهذه الشـريعة والعمل بها والتحاكم إليها والحكم بها في كل شيء ، وأن يعيذنـا وإياهم من بطانة السوء ومن دعاة الضلال ، إنـه علـى كـل شـيء قدير . وصلى الله وسلم وبارك على عبـده ورسـوله محمـد وعلـى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صدر من سلسلة

أين نحن من هؤلاء ؟

١- لحظات ساكنة
٢- والثمن الجنة
٣- اولئك الأخيار
٤- اصبر واحتسب
٥- الوقت أنفاس
٦- احصاه الله ونسوه
٧- الدنيا ظل زائل
٨- الفجر الصادق
٩- ففيهما فجاهد
١٠- اللهم سلم
١١- أيسر العبادات
١٢- الانفاس الأخيرة
١٣- سهم ابليس وقوسه.
١٤- رفقاء الطريق
١٥- ورثة الانبياء
١٦- ولو بشق تمرة

كما صدر من سلسلة / نحو دعوة عملية

١- ليس عليك وحشة
٢- رسالة إلى كل وافد
٣- دليل المراسلة الإسلامي
٤- في بيتنا خادمة

أخي طالب العلم

نقدم لك إسهاماً متواضعاً يُعينك بعد الله على أداء رسالتك الدعوية ويحفزك على بذل المزيد من النشاط في مجال الدعوة .

* القضاء والقدر * كتاب التوحيد * الوسيلة * الشفاعة * أحاديث في الفتن والحوادث * الكبائر * صفات الداعية الناجح * فوائد إيمانية من كتب ابن القيم * الهمة العالية * الوجازة في تجهيز الجنازة * قواعد الترجيح عند المفسرين * جواب اهل العلم والإيمان * فقه التاريخ * ابو بكر الصديق أفضل الصحابه وأحقهم بالخلافة * آل رسول الله وأولياءه * الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن * لحظات ساكنة * حاجة الصحوة إلى الفقه في الدين * الإفتراق مفهومه وأسبابه * العلماء هم الدعاة * أصول وضوابط في مجانبة الكافرين * ما يتميز به المسلم عن المشرك * آداب المشي إلى الصلاة * الشريعة الإسلامية ومحاسنها * مسئولية طالب العلم * دلائل التوحيد * بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل * فوائد وشواهد من محنة الإمام أحمد بن حنبل * فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام * روضة المحبوب من كلام محرك القلوب ابن القيم * الخوارج * شباب الصحوة * ياحسرة على العباد * ورثة الأنبياء * آداب المتعلمين

[اطلب قائمة اصدارات الدار تصلك بالبريد أو بالفاكس]